المنار

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب

بشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

١٣١٥

(قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و«منارا» كمنار الطريق)

(مصر — الثلاثاء غرة رجب سنة ١٣٢١ — ٢٢ سبتمبر (أيلول) سنة ١٩٠٣)

الكرامات والخوارق

(المقالة الثامنة عشرة في انواع الخوارق وضروب التأويل والتعليل)

النوع الثاني عشر امساك اللسان عن الكلام وانطلاقه

لم يذكر السبكي أمثلة لهذا النوع ولو ذكر شيئاً منها لوضح الحق من خلاله أشد من وضوحه بالبحث فيه من غير ذكر للوقائع التي سماها كرامات وخوارق عادات. والظاهر انه يعني بامساك اللسان وانطلاقه ان بعض الناس يحضر مجلس الرجل الصالح فيريد الكلام فينحصر وتأخذ الحبسة لسانه لما يعروه من الهيبة والاجلال ثم يزول ذلك بالانس أو المباسطة. وهذا أمر يقع كل يوم من المعتقدين مع الصالحين ومن المرؤسين مع الرؤساء ومن افراد الرعايا المهضومين مع الامراء . وما يقع منه

بين رجال الاديان ومن يعتقد رياستهم الروحانية من المقلدين كثير في كل أمة وملة ولكن كل فريق يعد هذا مزية له وكرامة من كراماته يجهل حال الآخر اذ العارف بأحوال الملل وشئون الناس لا يغتر ولا يستسلم للنصارى وأهلها فالآفة الكبرى هي الجهل والجهل سياج الدجالين ولذلك تراهم في كل ملة يعادون العلم وينهون عنه ويزعمون أنه حجاب دون الدين ؛ ومفسد لعقائد المؤمنين ، ويصدقهم في ذلك الجاهلون ، ويتعصبون لهم على الذين يعلمون والذين يتعلمون.

النوع الثالث عشر جذب القلوب النافرة

لم يذكر السبكي لهذا مثالاً أيضا وهو نحو الذي سبقه وأضعف منه فان كثيراً من أهل الشهرة ما نالوا شهرتهم الا بجذب القلوب وذلك أن في كل صنف من الناس من له هذه الخاصية فمنهم من يخلب القلوب بمهابته ، ومنهم من يسحر الألباب ببلاغته ، ومنهم من يستحوذ على النفوس بقوة روحه وتوجيه ارادته ، ومنهم من يخدع بعض البسطاء بزيه وشارته ، وقد رأيت بعيني كثيراً من الناس ناقمين على رجل من أهل الفضل منكرين عليه نافرين منه مسيئي الاعتقاد به وقد حضروا مجلسه واحداً بعد واحد وما منهم الا وقد انجذب قلبه اليه وامتلأ هيبة وإعظاما له وصار من المتعصبين له اللاهجين بالثناء عليه . والسبب في ذلك ان النفور الأول كان لسوء ظن أحدثه سماع كلام الحاسدين ولما شاهدوا الرجل رأوه بالضد مما كانوا سمعوا ورأوا فضلا كبيراً وعلماً واسعاً وأمارات تنطق بحسن القصد واخلاص القلب من حيث كانوا يتوهمون خلاف ذلك فتحولت قلوبهم مرة واحدة . فهل نقول ان هذا من باب الخوارق ونعظمه في سلك الكرامات والسبب فيه معروف والعلة ظاهرة ؟

حسب العاقل دليلا على فتنة الناس بمسألة الكرامات ان يرى العالم الاصولي منهم (كالتاج السبكي) يعد ميل القلب الى شخص بعد النفرة منه كرامة له ، كأن الفتنة قد سحرت النفوس وأفسدت العقول وأعمت الابصار وأصمت المسامع وساوت بين العالم والجاهل والذكي والغبي في عدم التمييز بين المعتاد وخارق العادة والغفلة عن الوقائع المتشابهة المتماثلة في مثل هذا الامر التي تقع لمن يعتقدون كرامتهم ومن يعتقدون كفرهم أو ابتداعهم . وفي طبقات السبكي كثير من هذه الوقائع يحكيها هو والمؤرخون

عن زعماء الفتن، ودعاة البدع، ومؤسسي المذاهب الباطلة، والطرق الموجبة الملتوية، وما رأيت في التاريخ أشد جذبا للنفوس، وتلاعبا بالعقول من رجال طوائف الباطنية فلقد كانوا يفعلون بالالباب مالا تفعل الخمر، ويؤثرون في النفوس مالا يؤثر عن فعل السحر،

فان قال قائل : ان جذب أئمة الكفر وزعماء البدع قلوب بعض أتباعهم أو بعض الضعفاء المستعدين لقبول ضلالتهم هو من باب الاستدراج والاملاء ليسترسلوا في غيهم حتى يأخذهم الله تعالى بالانتقام في الدنيا أو بالموت الذي يسوقهم الى الانتقام في الآخرة . وأما أولياء الله تعالى فانهم يجذبون القلوب الى الحق ويؤثرون فيها تأثير الخير النافع وبهذا كان جذبهم من الكرامة دون جذب غيرهم

ونقول في الجواب اننا نسلم بان ماذكرتم يصح ان يعد كرامة اذا سلمتم معنا بأن الكرامة ليست من الخوارق الحقيقية وانما هي من الخصائص الشريفة النافعة فإن أمرا يعقل سببه وتعرف علته ويقع من جميع أصناف الناس ومن أهل كل ملة ودين لا يصح للعاقل ان يجعله من خوارق العادات التي تأتي على غير النظام المعهود والسنن المطردة . ولكم بعد ذلك ان تأولوا ما يقع من ذلك للصالحين من أهل الملل الاخرى فأنه يوجد في كل أمة الصالح والطالح كما لا يخفى على المنصف الخبير

واننا نختم الكلام في هذين النوعين ـ المهابة التي تمنع الكلام وجذب القلوب ـ بشيء من العبرة بما كان لرؤساء الباطنية من الاحترام الروحي في نفوس اتباعهم ولم يصل الصوفية الصادقون الى مثل ذلك . قال المؤرخون : ان الحسن بن الصباح زعيم الاسماعيلية قد استهوى قلوب اتباعه واستحوذ على نفوسهم حتى كانوا يطيعونه في السر والجهر ولو بما يذهب بأرواحهم . ولقد كان من أمره لما أرسل السلطان يطلب منه الطاعة ان دعا نفرا من أتباعه وقال لاحدهم اقتل نفسك ففعل بدون توقف ولا تردد وقال لآخر : ارم بنفسك من هذا الحصن : فرمى بنفسه ومات . ثم التفت الى رسول السلطان وقال له : قل لمولاك هكذا يطيعني سبعون ألفا من الرعايا الامناء : فمن كان هذا شأنه وهذه منزلته في نفوس اتباعه فكيف تكون مهابته في نفس من يحضر مجلسه وكيف يكون انجذاب القلوب المعتقدة بفضله أو المستعدة لقبول عقيدته اليه وتحويمها عليه ؟ ؟

الصوفية الذين ينقل عنهم جذب القلوب والتسلط على نفوس المجالسين بالهيبة والوقار كانت سيرتهم على مقربة من سيرة زعماء الباطنية بل هم فرقة منهم وتأثيرهم من نوع تأثيرهم فالمؤرخ لايكاد يفصل بين هذا وهذا الا بالانتماء للمذاهب المعينة كالاسماعيلية وغيرهم وأما كلامهم في الدين وتفسيرهم للقرآن والحديث فانه متشابه لانهم يقولون فيه أقوالا تنكرها اللغة وأساليبها وتأباها سيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين وحجة الفريقين فيها واحدة وهي الاطلاع على الحقائق الخفية، والوقوف اسرار الدين الروحانية، وقد سلم الناس لهم بذلك تسليما لاسيما بعد موت العلم بحمل الناس على التقليد وحظر الاخذ بالدليل عليهم فمن لادليل له يسلم لكل من يعظم الناس أمره . ومارأيت في أمر الذين يسمى صنفهم صنف علماء الدين أعجب من تسليمهم لهؤلاء الباطنية الذين يدعون الولاية كل مايقولونه وازلم يوافق تقاليدهم فهم يسلمون لهم القول المخالف بغير دليل ويحجرون على غيرهم المخالفة بالدليل . وانت تعلم ان مبنى علومهم كلها على الكشف وسيأتي الكلام عليه مفصلا في النوع الرابع عشر ولذلك جعلنا هذه المقالة مختصرة حتى تمكن من جعل الكلام في الكشف في جزء واحد

هذا ـ وقد كنت قرأت في بعض الجرائد ان رجلا دخل على أحد علماء الكهرباء وهو في عمله وبين يديه الآلات والبطاريات فحدث في الكهربائية تأثر بدخوله لم يبق في ذهني ما هو ذلك التأثر الذي شوهد في الآلات فقال العالم للرجل أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر فكان التأثر باقباله غير التأثر بادباره اذ كان أحدهما في الكهربائية الايجابية والآخر في السلبية وكان لقربه أشد التأثير. فاذا صحة الرواية فلا بد ان يكون هذا الاكتشاف مفتاحا لمعرفة أسرار كثيرة كسر الحب والبغض والتأثير في النفوس فان في كل أحد كهربائية ويظهر انها في بعض الناس أقوى منها في بعض فلا عجب ان كان صاحب الكهربائية القوية يؤثر في صاحب الكهربائية الضعيفة وان يكون لتوجيه الارادة والهمة عملا في قوة التأثير ولا مانع من أن يكون لاختلاف الكهربائية في الشخصين شأن في الحب والبغض فقد يبصر الانسان الجمال البارع في شخص وعقته بلا سبب ظاهر مع اعترافه بجماله وقد يعشق ولا جمال . ومن الناس أفراد يستثقلهم كل أحد وأفراد يحبهم كل من عرفهم ويعبر الناس عن سبب الحب في هؤلاء بالجاذبية يقولون فلان

ذو جاذبية وفلانة ذات جاذبية ويصفونهم بخفة الروح وخفة الدم . ومن الناس من يباهم كل من يجالسهم وان كان من أقرانهم واهل للكهربائية أثرا في كل ذلك تظهره الايام ويكشفه العلماء فأين حديث الخوارق الكونية ، من هذه العلل الطبيعية ، ؟

ولا يهولن القارئ تأثير الانسان في الآلات الكهربائية فقد ثبت ان للسنانير تأثيرا عجيبا فيها تنبهوا الى هذا حين ثبت ان قطا وقف على سلك من أسلاك المسرة (التليفون) فأبطل عمله . فان قلت انه ماأثر فيه الا باتصاله به فكيف يؤثر الانسان في كهربائية لم يتصل بآلاتها ؟ أقول لايبعد ان ينتقل التأثير بواسطه كهربائية الجو أو الهواء أو الاثير ونحن في عصر يخاطب الناس فيه بالكهربائية من غير واسطة الاسلاك وهو مايسمونه (تلغراف ماركوني) فهل يليق بأهل هذا العصر ان يقلدوا الميتين من بضع مئين من السنين أو أكثر في مزاعم غريبة عن العقل غير قريبة من الشرع ، ويقولوا مع ذلك ان عقولهم أرقى من عقولنا ، وعلومهم أغزر من علومنا ، كلا انما يرضى بهذا من احتقر نعمة الله على أهل عصره ، وسجل الخزي والخسار على نفسه ، فانكر كرامة الله له ليثبت كرامته لآخرين ، وخسر بجهله الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين

مناظرة بين مقلد وصاحب حجة

لما نشرنا تلك المحاورات بين المصلح والمقلد في بحث الاجتهاد والتقليد ووحدة الامة الاسلامية في المجلدين الثالث والرابع من المنار كتب الينا بعض الفضلاء من قراء المنار في البحرين يسألنا : هل اطلعتم على كتاب أعلام الموقعين للامام ابن القيم ؟ فأجبناه اننا لم نطلع عليه ولكننا رأينا في بعض الكتب نقلا عنه عرفنا به مكانته . فكتب الينا ثانيا ان فيه مناظرة بين مقلد وصاحب دليل كالمناظرة التي نشرتموها واننا سنرسل اليكم نسخة منه ولم يلبث ان أرسلها وكانت مقالات المحاورات قد تمت . وقد رأينا الآن ان ننشر هذه المناظرة أيضاً لان هذا المبحث أهم المباحث والاجتهاد ركن من أركان الاصلاح بل هو أقوى أركانه . ولقد أورد المصنف شبه المقلد كلها سردا ثم ذكر حججه متبع الدليل الناهضة والناقضة لاقوال المقلد وشبهه واحدة بعد واحدة ولذلك نترك شبهات المقلد خشية التكرار ونبتدئ بالحجج فنقول : قال المؤلف رحمه الله تعالى ونفعنا به :

(قال أصحاب الحجة) عجبا لكم معاشر المقلدين الشاهدين على أنفسهم مع شهادة أهل العلم بأنهم ليسوا من أهله ولا معدودين في زمرة أهله كيف ابطلتم مذهبكم بنفس دليلكم فما للمقلد وما للاستدلال وأين منصب المقلد من منصب المستدل وهل